المكتبات وهواة الكتب
فى اسبانية الاسلامية[1]

— ٢ —

للأستاذ خوليان ريبيرا

ترجمة الدكتور جمال محرز

لم يكن سكان قرطبة ، تلك العاصمة المكتظة بأهلها ، من المسلمين فحسب ، بل كانت تموج أيضاً بالمسيحيين الذين كانت لهم دياناتهم وكنائسهم وأساقفتهم وقساوستهم ، والذين تركت لهم الحرية فى تعليم أبنائهم وتربيتهم على ما كان شائعاً حينئذ من عادات وأفكار ، تدلنا على ذلك وثيقة محايدة ، تركها مسيحى مستعرب مرموق هو « البارو القرطبى » إذ ذكر فى كتابه « الدليل المنير » Indiculus Luminosus « أن كثيراً من أهل ملتى يقرأون شعر العرب وقصصهم ويدرسون ماكتبه الفقهاء والفلاسفة من المسلمين ، ولم يكن ذلك بقصد الرد عليها ، ولكن ليتعلموا كيف يكون التعبير السليم الفصيح باللغة العربية . نعم إن جميع الشبان المسيحيين الأذكياء يعرفون اللغة العربية وآدابها ، ويقرأون ويدرسون الكتب العربية ، بل ويبذلون أموالا طائلة فى تأسيس مكتبات عظيمة ، ويعلنون بأعلى صوت وفى أى مكان ، أن هذه الآداب جديرة بالإعجاب .

« وإن سياسة الأمويين السمحة الحكيمة أدت إلى إبقاء المسيحيين فى أعمالهم ، ولم تطردهم من وظائفهم ، حتى من كان يعمل منهم فى القصر ، وقد آتت هذه السياسة ثمرتها لدرجة أن الخلفاء عرفوا كيف يهدئون ثائرة

---

(١) انظر القسم الأول من هذا البحث فى المجلد الرابع (مايو ١٩٥٨) فى هذه المجلة .

النفوس الهائجة ويمنعون التصادم بين أتباع دينين جد مختلفين ، أللهم إلا فى تلك الأيام الحزينة التى جرت فيها دماء الشهداء فى شوارع قرطبة » .

واليهود ، هذا الشعب الذى فرض عليه أن يعيش مع الشعوب الأخرى ، ولا ينظر إليه بعين الارتياح على الرغم مما كان فيه من ضيق، اتبعوا أيضاً نمط الحياة السائد فى تلك الفترة ، وفى الوقت الذى كانت تزخر فيه معابدهم ومدارسهم بما يترنم إخوانهم بعمله فى المشرق ، وتنعم هذه المعابد والمدارس برعاية « حسداى » طبيب الخليفة الحكم المشهور ، نجدهم يوجهون عنايتهم إلى الدراسات العربية ، فاعتادوا الكتابة بها . والعناية بتكوين مكتبات عربية . وكان يوسف بن إسماعيل اليهودى وزير باديس بن حبوس الغرناطى من أشهر المولعين باقتناء الكتب فى إسبانيا الإسلامية ، وكانت مكتبته من أشهر المكتبات المعدودة بها[1].

وقد تأثر عدد من المولدين ، سيئى الحظ ، من الغاليين والقطلونيين والفرنسيين واللمبارديين وأهل كالبريا بهذا الميل ، وقد شاء الحظ التعس لبعضهم أن يكونوا خدماً للحريم ، مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة لئلا يقع ضرر ما على شرف السيدات ؛ وقد استخدم هؤلاء المولدون فى القصر وفى حراسة السلطان ؛ ولما كان هؤلاء يصلون إلى قرطبة وهم أطفال ، سواء أكان ذلك عن طريق الشراء أم كهدايا من الحكام الأوربيين (أرسل دوق برشلونة عشرين صبيا فى إحدى المرات تمهيداً للتحالف مع الخليفة) كانت توجه إليهم عناية فائقة لتربيتهم تربية تؤهلهم لكى ينضموا فيما بعد إلى زمرة الأدباء، فيزيدوا من عددهم ، وكانوا ينظمون الشعر ، ويكتبون أدباً باللغة العربية ، وينشئون المكتبات ؛ وإلى هذه الدرجة بلغ الشغف بالكتب[2] .

وقد انتقلت هذه الرغبة من الأشخاص المرموقين ، حيث نشأت أولا ، إلى هؤلاء الذين أرادوا أن يتشبهوا بهم ، كما هو الحال الآن ، وفى بعض

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة حـ ١ ورقة ١٣١ ،
Munk: Melanges de Philosophie Juive et Arabes p. 489.

(٢) **Dozy: Histoire des Musulmans en Espagne vol III p. 61.**

الأحيان ، أثار بعض هؤلاء الهواة المتهوسين منافسة حادة مع جماعى الكتب من العلماء ذوى الأصل الكريم ، ونترأ وصفاً شاهداً على ذلك ما ذكره الحضرمى — الرحالة المشهور وجماع الكتب — عن زيارته لأحد دكاكين الكتب بقرطبة حيث جرى العرف على أن يتم البيع بالمزاد العانى بوساطة خبير ، فيقول : « أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب لى بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع ، وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلى المنادى بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا ، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لايساوى . قال : فأرانى شخصاً على لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ؛ إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، قال : فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت بها لأتجمل بين أعيان البلد ، وبقى بها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير ، قال الحضرمى : فأحرجنى وحمانى على أن قلت له : نعم لايكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا له أسنان ، وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه » .

يقول المؤرخ ابن سعيد الذى نقلنا عنه النص السابق : إنه سمع من والده أن قرطبة كانت تحتوى على أكبر قدر من الكتب بإسبانيا ، وأن أهلها كانوا أشد الناس حبا فى إنشاء المكتبات ، فعن هذه السبيل يصبح الفرد شخصية هامة أو ممتازة ، إلى حد أن الأشخاص العاديين الذين لم ينالوا تربية علمية كانوا حريصين على ألا تخلو منازلهم من مكتبات تشتمل على كتب مختارة بعناية فائقة ، ولهذا كان لبعض ما يقال أثر عظيم فى النفوس ، كأن يقال : « فلان .. فى مكتبته نسخة فريدة » أو « قد تمكن فلان من الحصول على كتاب بخط الناسخ فلان المشهور . . . »[1] .

(١) المقرى : نفح الطيب ، حـ ١ ص ٣٠٢

وعندى أن هذه القصة ترسم ما كان عليه سوق الكتاب فى قرطبة من رواج بصورة أفضل من أى وصف آخر له ، وتوضح كيف أن الهواية تغلغلت فى النفوس لا بقصد العلم فحسب بل بقصد الترف أيضاً ، وتدل على صفات جمّاعى الكتب ، فهذا جمّاع من أصل طيب لم يتمكن من الحصول على الكتاب بالرغم من اجتياحه إليه فى حين أن الذى تمكن من شرائه شخص ليس له من غرض سوى عرض (كعبه) فى منزله ؛ وإن الغرابة التى تثيرها هذه الحادثة فى نفس الأجنبي لدليل على أن مثل هذه المناظر لا توجد فى بلده .

ولعل التكهن بعدد الكتب التى كانت تنسخ سنوياً فى قرطبة من الأمور التى تدعو إلى الدهشة ، وإن كان مما يسهل تقديره . فإذا أدخلنا فى حسابنا أن عدد الطلبة بها كان يروح بين خمسة آلاف وستة آلاف طالب (كان يجتمع فى فصل واحد على مدرس واحد ألف طالب) ، وأن هؤلاء كانوا ينسخون كل ما يلقيه عليهم أساتذتهم من علوم ، وأنهم يدرسون فى عام واحد عدة كتب ، وأن مئات من النسوة كن يحترفن نسخ القرآن وكتب العبادة ، وأن بعضهن كن ينسخن القرآن فى أسبوعين ، وإذا علمنا فضلا عن ذلك ، أن عدداً من الوراقين كان لهم نساخ خصوصيون يدفعون لهم أجورهم ، وأن المكتبات الخاصة كان لها جماعات من الرجال المختصين لهذا العمل ، لاستطعنا أن نقدر عدد الكتب بين سبعين وثمانين ألف نسخة تقريباً دون مغالاة فى العدد .

وقد ذكر ابن بشكوال فى ترجمته لعبد الملك بن زيادة الله بن على ابن حسين بن محمد بن أسد التميمى ، من أهل قرطبة ، ما أنشده اغتباطاً بالتفاف ألف تلميذ حوله فى جامع قرطبة ، ومع كل تلميذ محبرته وقلمه لينسخ ما يمليه عليه إذ قال :

إنى إذا احتوشتنى ألف محبرة — يكتبن حدثنى طوراً وأخبرنى
نادت بعَقْوَتى الأقلام معلنة — هذى المفاخر لا قعبان من لبن

وفى روايةللحميدى :

إنى إذا حضرتنى ألف محبرة تقول أنشدنى طوراً وأخبرنى
نادت بأقليمى الأقلام ناطقة هذى المكارم لاقعبان من لبن

وقد ولد عبد الملك فى ١٦ من ذى الحجة عام ٣٩٦ هـ وتوفى فى ربيع الآخر عام ٤٥٧ هـ[١] .

وقد وصلت شهرة مسلمى إسبانيا ومقدرتهم على النسخ والتجليد إلى المشرق ، وقد أشاد المقدسى بذلك فى كتابه[٢] .

وهذا (أى عدد الكتب) قليل إذا ما قورن بالوقت الحاضر ، ولكنه كثير فى ذلك الوقت إذا أدخلنا فى اعتبارنا أنها نسخ مخطوطة ، وأن أوربا مجتمعة لا تعطينا مثل هذا الرقم من المخطوطات ولا أظن أن الحقيقة تجانب كثيراً من يقول إن عدد الكتب وهواتها وعدد المكتبات كان أكثر فى ذلك الحين من الآن ، فسرقسطة مثلا أو بلنسية بالرغم من أنهما من المدن الرئيسية فى إسبانيا التى أصبحت مساحتها أكثر اتساعاً مما كانت عليه آنذاك ، فى الوقت الذى ازدهرت فيه الحركة الأدبية فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى لم يكن بها غير مكتبات أربع بعد اختراع المطبعة .

وقد أراد المنصور بن أبى عامر أن يتفوق على الحكم فى ميدان الثقافة وهواية جمع الكتب ، لذا نجد ولده عبد الله يهتم اهتماماً خاصاً أثناء رحلته إلى المشرق بتصحيح ومقابلة نصوص الكتب التى يدرسها أو يحصل عليها[٣] .

وكان المبرزون من أدباء قرطبة يهدون المنصور ما يؤلفونه من كتب ، فمثلا قدم إليه صاعد البغدادى المشهور كتابه « الفصوص » فمنحه المنصور خمسة آلاف دينار ، وصاعد هذا هو صاعد بن الحسن الربعى اللغوى ،

---

(١) ابن بشكوال : ح ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٦ ترجمة ٧٦٩ .
(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٣٩ ط دى غوية .
(٣) المقرى : نفح الطيب ح ١ ص ٩٠٤ .

كان قد قدم إلى قرطبة لينافس أبا على القالى درة عهد عبد الرحمان الثالث والحكم الثانى وقد توفى صاعد عام ٤١٧ هـ بصقلية فى سن عالية(١) .

ووضع حسان بن مالك بن أبى عبدة كتاباً للمنصور أنجزه فى سبعة أيام تأليفاً ونسخاً وتصويراً ، وقد مات حسان قبل عام ٤٢٠ هـ(٢) ..

وكان للمنصور كتبه المحببة إلى نفسه منها كتاب الجواس Chaguas من تأليف أبى العلاء البغدادى وكان يطالع فيه كل ليلة(٣) ، وكان ولوعاً بتزيين مصحف عثمان بالأحجار الثمينة(٤) ؛ غير أن أمره بإحراق جزء كبير من مكتبة الحكم الثانى كان من أبرز الأمور التى لم تغفر له(٥) .

وكان محمد بن عبد الرحمان بن معمر اللغوى من أهل قرطبة هو المسئول عن تصحيح ومقابلة كتب المنصور وكتب ابنه ، وهو الذى أسس لهما مكتبتيهما واستعان بما فيهما من كتب فى تأليف كتابه الذى وضعه عن تاريخ بنى عامر ، وكان من أكبر الناس تقديراً للخطوط وأنسبهم لها إلى كتابها ، فضلا عن كونه مؤرخاً ، وقد توفى فى شوال عام ٤٢٣ هـ(٦).

غير أن هذه الفترة المزدهرة لم تدم طويلا لاندلاع الحرب الأهلية فى قرطبة بعد عهد المنصور وبداية عهد الهمجية على يد البربر الذين كانوا يكونون الجزء الأكبر من القوات الملكيـــة ، وأخذوا يسرقون القصور والمكتبات ويحرقونها مما أدى إلى انتقال الأسر ذات الدخل المتوسط إلى الأقاليم ، وهروب الطلاب والأساتذة من العاصمة إلى غيرها من المدن مؤسسين بذلك مراكز تعليمية جديدة ، وناشرين فى الوقت نفسه هواية جمع الكتب فى البلاد التى

---

(١) الضبي ص ٣٠٦ – ٣١١ ترجمة ٨٥٢ ؛ ابن بشكوال : حـ ١ : ص ٢٣٥ – ٢٣٦ ترجمة ٥٣٦ .

(٢) الضبى : ص ٢٥٥ – ٢٥٦ ترجمة ٦٦٢ .

(٣) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢١ ط دوزى .

(٤) ابن الأبار : التكملة حـ ١ ص ٣٢٠ – ٢١ ترجمة ٩٥٢ .

(٥) المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ١٣٦ .

(٦) ابن الأبار : التكملة حـ ١ ص ١١٩ ترجمة ٤١٧ .

لجأوا إليها، والتى غدت فيما بعد عواصم ملوك الطوائف المنشقين على طاعة السلطة المركزية القائمة فى قرطبة تلك السلطة التى تعرضت فى كل لحظة للتحطيم والزوال .

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن قرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية ظلت المركز الرئيسى للتعليم بنوعيه الأدبى والعلمى فى تلك الأوقات التى زاد فيها الشغف بالكتب ، وها هى ذى أسماء بعض جماعى الكتب .

فطين : أحد موالى المنصور ، جمع عدداً عظيما من الكتب الصحيحة المضبوطة النقط ، وقد باعها بعد وفاة مولاه(١).

وأبو على الغسانى ، وقد أسس مكتبة كانت تعد فى عهده من أغنى المكتبات وأحسنها اختياراً ، واعتبرت كتبه ومراجعه فى العلوم المختلفة مصادر ثقة(٢).

أما محمد بن يحيى الغافقى ، من أهل قرطبة ، ويعرف بابن الموصول، فكان يجمع من لدن صباه كتباً ومقالات منتقياً إياها بعناية فائقة ، وكان عارفاً بخطوط نساخى الكتب ، ويحتكم إليه لمعرفة أسمائهم ، وكان موثراً للكتب على كل لذة حتى اجتمع له منها ما لم يجتمع مثله لأحد بعد الحكم الثانى ، وكانت عنده كتب بخط أبى على القالى البغدادى ، ونسخ لفطاحل العلماء ، ومهرة الخطاطين ، وقد توفى فى جمادى الآخرة عام ٤٣٣ هـ(٣). وباع ورثته المكتبة وأغلوا فيها حتى قومت الورقة فى بعض كتبها بربع مثقال .

وأسس الوزير جعفر بن مكى بن أبى طالب بن محمد بن مختار القيسى اللغوى ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عبد الله ، مكتبة عظيمة ، وقد ولد بعد عام ٤٥٠ هـ بفترة وجيزة وتوفى فى المحرم عام ٥٣٥ هـ(٤).

---

(١) المقرى : نفح الطيب حـ ٢ ص ٥٧ .
(٢) ابن بشكوال : حـ ١ ترجمة ٦٢٦ .
(٣) ابن الأبار : حـ ١ ص ١٢٢ ترجمة ٤٢٧ .
(٤) ابن بشكوال : حـ ١ ص ١٣١ ترجمة ٤٢٩

وكذلك فعل كل من محمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا بكر ، ولد فى رجب عام ٣٩٥ هـ وتوفى عام ٤٩٥ هـ[١] ، وهشام بن عبد الرحمن بن عبد الله ويعرف بابن الصابونى ، من أهل قرطبة .

وممن جمع كتباً كثيرة محمد بن أحمد بن عون بن محمد بن عون المعافرى ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عبد الله ، ولد عام ٤٤٠ هـ وتوفى فى ذى القعدة عام ٥١٢ هـ[٢] ؛ ومحمد بن عبد الرحمان بن خيرة ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا الوليد[٣] .

وقد أسس الأمير هشام من أمراء الأسرة الأموية وحفيد عبد الرحمن الثالث مكتبة عظيمة اشتراها الخليفة سليمان .

أما مسلمة بن سعيد بن سلمة بن حفص بن عمر بن يحيى بن سعيد بن مطرف بن برد الأنصارى ، من أهل استجه وسكن قرطبة ، ويكنى أبا القاسم ، فقد رحل إلى المشرق ، وجد فى جمع كتب جديدة من الأقطار التى كان يزورها ، وكان كلما اجتمع له منها مقدار صالح نهض به إلى مصر ، وهكذا ساق من المشرق ١٨ حملا من الكتب فى كل فن من العلم ، ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله إلى المشرق[٤] .

ونذكر فى النهاية الحسن بن بكر بن غريب القيسى السماد ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا بكر ، الذى لم يزل ينسخ ويدرس إلى أن توفى يوم الثلاثاء لأربع بقين من صفر عام ٤٣٠ هـ وكان مولده عام ٣٥٤ هـ[٥] .

وقد لمعت أسماء كثير من مهرة النساخين الذين كانوا يكتبون كتابة صحيحة وبمهارة عظيمة ، ومنهم يوسف بن خلف بن سفيان بن عمر بن أسود الغسانى اليمانى ، سكن قرطبة ، ويكنى أبا عمر ، وقد توفى بعد عام ٤٠٠ هـ[٦] .

(١) ابن الفرضى : جـ ٢ ص ١٠٤ ترجمة ١٧٢٤
(٢) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٥١٤ ترجمة ١١٤٤
(٣) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٥٣٤ ترجمة ١١٨٦
(٤) ابن بشكوال : جـ ١ ص ٢٣٤ ترجمة ٥٠٨ .
(٥) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٣٧ ترجمة ٣٠٧ .
(٦) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٦١٤ ترجمة ١٣٧٧ .

ويمن بن محمد الوراق ، يكنى أبا الفضل ، من أهل رية ، سكن سُمَتَجَلَة وأقام بقرطبة[1].

ومحمد بن حكم بن سعيد ، من أهل قرطبة ، يعرف بالخال ، وكان أنيق الوراقة ، مما جعل الناس يتنافسون فيما كتبه حتى فى العصور المتأخرة[2].

وكان سعيد بن سلمة بن عباس بن السمح بن وليد بن حسين ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عثمان ، شديد التحمس لضبط الكتب طيلة حياته الطويلة ، ولد عام ٣٣٥ هـ وتوفى عام ٤١٧ هـ[3].

أما سعيد بن نصر بن أبى الفتح مولى أمير المؤمنين عبد الرحمان بن محمد ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عثمان، فكان يلجأ إليه لتصحيح الكتب[4].

وكان عمل الوراقة أحياناً مصدر رزق لبعض الأدباء مثل مروان بن أمية ، من أهل قرطبة ، وهو من ولد أمية بن زيد الكاتب توفى عام ٤٤٠هـ[5]

وفى الأوقات العصيبة خلال الحرب الأهلية ، قاسى بعض الناس من سرقة مكتباتهم ، كما حدث لعمر بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يحي ابن حامد الذهلى ، من أهل قرطبة ، إذ سرق منه ثمانية أحمال من الكتب ، ولد بالزهراء يوم الجمعة ١٠ صفر عام ٣٦١ هـ[6].

وكانت المكتبات كلها خاصة ، وكان ببعض المساجد كتب يستخدمها الطلاب ، ولم يكن هناك من خدمة عامة غير هذه ، وليس بصحيح ما يقوله « غزيرى » فى فهرسه الذى عمله لمكتبة الأسكوريال[7] (وقد فقد كثير منها) من أنه كان بإسبانيا سبعون مكتبة عامة ، ولم تكن مكتبة الحكم الثانى مفتوحة للشعب كما يؤكد بعض الناس .

---

(١) ابن الفرضى : حـ ٢ ص ٦٤ ترجمة ١٦١٢ .
(٢) ابن الأبار : التكلة حـ ١ ص ١١٠ ترجمة ٣٧٩ .
(٣) ابن بشكوال : حـ ١ ص ٢١٤ ترجمة ٤٨٠ .
(٤) المصدر السابق : حـ ١ ص ٢٠٨ ترجمة ٤٦٣
(٥) ابن الأبار : التكلة حـ ١ ص ٣٨٠ ترجمة ١٠٨١ .
(٦) ابن بشكوال : حـ ١ ص ٣٦٢ ترجمة ٥٨٧
(٧) Casiri: Biblioteca arabica — hispana ascurialensis I. II. p. 71.

وإذا كانت قرطبة قد احتلت المركز الأول فى ميدان التعلم وهواية جمع الكتب فإن إشبيلية ،موطن الملك الشاعر المعتمد التى لا منافس لها، قد شغلت المركز الثانى . وقد تذاكر مرة الفيلسوف القرطبى المشهور ابن رشد والطبيب الإشبيلى اللامع ابن زهر عن أهم ما تشتهر به المدينتان ، وقد أثرت عن هذه المذاكرة عبارة ابن رشد المشهورة االمعبرة عن الحقيقة « إنى لا أعرف لماذا يقال هذا ؟ » قال .. إنه عندما يتوفى عالم فى إشبيلية تنقل مكتبته إلى قرطبة لتباع هناك ، وعندما يموت مغن أو موسيقى فى قرطبة تنقل آلاته إلى إشبيلية حيث تباع هناك » وإن هذه المذاكرة التى توضح تماماً شهرة كل من المدينتين تميل فى فكرتها إلى تفضيل العاصمة ، ولكن يجب أن نسند إلى إشبيلية المركز الثانى فى هذا الشأن الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وإن لم يكن هذا بفضل مكتبة الأسرة الملكية التى كانت تعد من أحسن المكتبات ، أو بعدد الجامعين والمكتبات التى ازدهرت فى إشبيلية ، بل بفضل الشهرة التى اكتسبتها سوق الكتب بها تلك السوق التى كان يتردد عليها رجال الأدب بحثاً عن النسخ النادرة الغريبة ، وكثيراً ما يشير ابن الخطيب المؤرخ الغرناطى إلى الخط الإشبيلى على أنه خط له طابعه الخـــاص ، ويمكن تمييزه عن الخطوط المستخدمة فى باقى بلاد الأندلس[1].

ويذكر ابن الأبار فى كتابه التكملة ، شارع الوراقين فى إشبيلية حيث عثر ابن مزين فى أحد حوانيته على مؤلف تاريخى نادر من تأليف الرازى[2] ، وهو كتاب الرايات .

وكان عبد الله بن محمد بن سارة البكرى من شنتريه ، ويكنى أبا محمد ، ويسكن إشبيلية ، يتعيش من الوراقة ، وقد توفى عام ٥١٧ هـ[3].

ومن أهل إشبيلية الوراقين عبد الرحمان بن عثمان بن عبد الرحمان الجذامى ، وقد سكن قرطبة[4].

---

(١) Gayangos: History T. I. apendice XLII.

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٩٧ .

(٣) ابن الأبار : التكملة حـ ٢ ص ٤٦٢ – ٤٦٣ ترجمة ١٣٣١ .

(٤) المصدر السابق : حـ ٢ ص ٥٨٣ ترجمة ١٦٣٤

ويمكننا أن نذكر الأسماء الآتية من بين جماعى الكتب بإشبيلية : شرف الدين ابن الملك المعتمد ، وكان شغوفاً بجمع الكتب ، وقد نسخ بنفسه بعضاً منها بخطه الجميل[1].

ومنهم محمد بن عبد الله بن يزيد بن محمد بن خير بن عيسى اللخمى ، يعرف بابن الأحدب ، من أهل إشبيلية ، يكنى أبا عبد الله ، كان جماعاً للكتب والأصول[2].

ومحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن العربى المعافرى الإشبيلى ، اشتهر بسهره الليالى فى الاستذكار ، وهو بكامل ملابسه ، ممدداً والكتب عن يمينه وشماله ، ومصباحه لا يطفأ ، فإذا استيقظ مد يده وأخذ كتاباً ليقرأ[3].

ومحمد بن خير بن عمر بن خليفة مولى إبراهيم بن محمد بن يعمور اللمتونى من أهل أشبيلية ، خصص كل وقته لتصحيح كتبه ، وعند وفاته بيعت كتبه ووصلت أثمانها الغاية التى لا مزيد عليها[4].

وابن مروان الباجى المشهور ، أعطى كتبه التى جمعها إلى خطيب جامع إشبيلية أبى الحكم بن الحجاج اللخمى من أهل إشبيلية وهو عبد الرحمان بن محمد بن عمرو بن أحمد بن حجاج اللخمى ، يكنى أبا الحكم ، ولد فى شوال عام ٣٢٠ هـ وتوفى فى صفر عام ٦٠١ هـ[5].

وكانت المرية من أشهر مدن الأندلس فى هذا الشأن ، ولو أن شهرتها هذه ترجع إلى إقامة أبى جعفر بن عباس ، وزير الملك زهير ، وأشهر جماعى الكتب فى تلك العصور . ويذكر معاصروه أن أحداً من رفاقه لم يكن يفوقه فى أربعة أشياء : المال والبخل والعُجْب والكتابة ، وكان على ما يذكرون

---

(١) المقرى : نفح الطيب : جـ ٢ ص ٤٨٧ .
(٢) ابن الفرضى : جـ ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ ترجمة ١٧٣٠ .
(٣) الضبى : ص ٨٢ — ٩٠ ترجمة ١٧٩ .
(٤) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٢٤٠ — ٢٤٢ ترجمة ٧٨٠ .
(٥) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٥٨٠ — ٥٨١ ترجمة ١٠٨٦ .

شاباً وسيما رشيقاً متين الجسم ، ورث عن آبائه ثروة هائلة قدر المال المعدود منها والمنقوط فقط بمقدار ٥٠٠ ألف مثقال ذهب شريفى أى ما يعادل ٢٠ مليون ريال إسبانى ، وذلك عدا الممتلكات فى الضياع والمدن . وقد درس أبو جعفر كل العلوم بشغف عظيم وبخاصة القانون وفروع المعرفة المتصلة بالسياسة ، وهى التى أوصلته إلى مرتبة الوزارة كما ذكرنا . وقد أساءت إليه رذيلة البخل إذ أنه لم يعن فى تقدير مصروفاته المنزلية منها والخاصة بما تدره عليه أملاكه من دخل . وكانت هواياته فضلا عن جمع الكتب ، هوايات زهيدة التكاليف جداً، إذ لم يكن له من هواية أكثر من اللعب بالشطرنج الذى شغف به شغفاً عظيما ؛ ومع كل هذا فإنه فى سبيل الحصول على مخطوطات أو أوراق قديمة أو كراسات مفككة أو قطع من القماش أو أوان وأثاث لم يكن مساوماً أو شحيحاً بل كان كريماً ومتسامحاً فوق الحد ، وكان الوراقون والنساخون والتجار الذين يتعاملون معه يعرفون عنه ذلك جيداً . وكثير منهم أثرى من التعامل معه فقط ، إذ أنه كان مستعداً أن يدفع ثلاثة أمثال الثمن الذى تستحقه الكتب ، ومن ثم عُرف عنه أنه أفضل عميل ، مما كان يدعو الوسطاء والوراقين أن يجلبوا له أفضل ما عندهم . وبهذا استطاع أن يجمع مكتبة ضخمة تربو مجلداتها على ٤٠٠ ألف مجلد كامل عدا الأوراق والكراسات المنفصلة التى تفوق الحصر والتى ملأت قصره فضلا عن الخزائن العتيقة .

وممن يذكرون غيره[1] قاضى المرية عبد الحق بن عطية وكان جماع كتب كبير[2] ، وكذلك ميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى ، وهو سيد بربرى من قبيلة صنهاجة سكن المرية ، وأهله من صحراء المغرب ، يكنى أبا عمر ، وكان يفضل جمع الكتب القيمة ، وقد توفى بإشبيلية فى ذى القعدة عام ٥٣٠ هـ[3].

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٥٩ ، ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ورقة ٦٧ ب .
(٢) المقرى : المصدر نفسه جـ ١ ص ٨١٧ .
(٣) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٣٩٥ – ٣٩٦ ترجمة ١١٣٧ .

وكان بالمرية وراق يدعى نصر[1] .

ويُذكر من أهل مالقة وراق ونساخ قدير ، هو ابن مدرك الغسانى كان واسع الثقافة ، كرس حياته لجمع دواوين الشعر والرسائل الأدبية بكميات وافرة ، وكان خبيراً بخطوط كبار النساخين ، أما نسبه فهو محمد ابن سعيد بن محمد بن سعيد بن أحمد بن محمد بن مدرك بن عبد العزيز بن عثمان بن أحمد بن عيسى بن مدرك الغسانى ، من أهل مالقة ، يكنى أبا عبد الله وأبا بكر[2] .

وخطيب مسجد مالقة عيسى الروندى الذى رحل إلى المشرق حيث جمع كتباً كثيرة ضاعت كلها نتيجة اضطرابات عائلية . وقد وصلت إلينا بعض أبيات قالها شاعر مالقى يسمى أبا جعفر أحمد بن رضا المالقى :

ليس المدامة مما أستريح له ولا مجاوبة الأوتار والنغم

وإنما لذتى كتب أطالعها وخادمى أبداً فى نصرتى قلمى

والفقيه الطبيب الفيلسوف عثمان بن مندور المالقى ، وهو من سلالة أسرة نبيلة فى إشبيلية ، تزوج ابنة أبى على بن حسان النقيه التى ورثت مكتبة أبيها[4] مما أتاح له الانتفاع بها .

ومحمد بن أحمد بن بلس ، حفيد القاضى أبو الفضل بن عياض المشهور وقد ورث مكتبته الضخمة المنتقاة التى سبق له أن جمعها[5] .

ويمكن لروندة أن تفخر بوجود جماع كتب ذائع الصيت من أسرة نبيلة من إشبيلية ، هو محمد بن الحكيم اللخمى الذى لم يمنعه اهتمامه بالاشتغال بالسياسة والمزادات العلنية بغرناطة من دراسة العلوم ، وقد استطاع أن يجمع عدداً عظيما من الكتب دفعه إلى جمعها حبه وشغفه بها حتى إن حجرات قصره

(١) المصدر السابق : حـ ٢ ص ٤١٦ ترجمة ١١٩٢ .
(٢) ابن الأبار : التكملة حـ ١ ص ٢٣٤ — ٣٥ ترجمة ٧٦٨ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ص ٢٢٠ (دوزى) . Lerchundi: Chrestomatia
(٤) ابن الخطيب : الإحاطة حـ ٣ ورقة ١٤١ ب .
(٥) المصدر السابق : حـ ٢ ورقق ١٦٣ ب .

ضاقت بخزائنها . وكان كرمه مثار مديح له أكثر من كنوز مكتبته ، وقد ضاعت كل مجوهراته وكنوزه وكتبه وأقمشته فى ثورة الشعب[1].

وتدين بطليوس بشهرتها فى ميادين الأدب ، إلى العالم المضفر بن الأفطس. وقد اعتمد فى تأليف كتابه المشهور المسمى « المضفريات » اعتماداً كلياً على ما كانت تضمه مكتبته العظيمة المنتقاة. وكتابه هذا عبارة عن دائرة معارف تقع فى خمسين مجلداً وتعالج كل العلوم من فن الحرب والسياسة والتاريخ إلى الخرافات والأساطير وغيرها من فنون الأدب[2]. وقد توفى المضفر عام ٤٦٠ هـ .

وكان بشلب وراقون أيضاً وقد أقام بها أبو القاسم القنطرى ، من أهل القنطرة ، وهو محمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن مفرج بن مسعود بن صفوان بن سفيان ويعرف بالقنطرى ، ويكنى أبا القاسم ، وقنطرة السيف من الثغر الجوفى ، وكان جماعاً للدواوين والكتب[3].

أما طليطلة فليست فى حاجة لأن نتحدث عنها إذ كانت مشهورة فى العصور الوسطى كمركز للتعليم ، يتردد عليه علماء أوربا لدراسة العلوم العربية . وقد ظهرت فيها بقايا متفرقة من مكتبة الحكم الثانى ، وذلك أيام الحرب الأهلية. وطليطلة هى المدينة التى عاش فيها بنو ذى النون الذين دفعهم حبهم للكتب إلى الاستيلاء عنوة على مكتبات خاصة ، فنهبوا مكتبة العروشى حيث أتيح للناس أن يشهدوا أمراً عجيباً عندما شبت النار فى حى الفرائين ، ولم يهتم أحد بأن ينقذ منها سوى حجرات ابن ميمون جماع الكتب حيث كان يحفظ مكتبته التى اشتهرت باحتوائها على الكتب الصحيحة ، وابن ميمون هذا هو أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموى ، ويكنى أبا جعفر ، ولد عام ٣٥٣ هـ وتوفى فى شعبان عام ٤٠٠ هـ[4].

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ورقة ١١٠ .
(٢) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ١٢١ ترجمة ٤٥١ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٠
(٣) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٢١٦ – ٢١٧ ترجمة ٧٣٤ .
(٤) المصدر السابق : جـ ١ ص ٢١ – ٢٣ ترجمة ٣٠ .

وعاش بها في أواخر أيامها محمد بن أحمد بن إسماعيل بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ، ويكنى أبا عامر ، وقد ولد عام ٤٥٦ هـ ، وتوفى فى ربيع الأول عام ٥٢٣ هـ[١]، وكان شغوفاً بجمع خطوط العلماء المشهورين فى طليطلة .

ويذكر ابن الأبار كخطاطين مصححين : كلا من سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ ، ويكنى أبا الربيـــع ، وقد ولد عام ٣٤٧ هـ ، وتوفى عام ٤٤٠ هـ[٢] ، وقاسم بن محمد بن سليمان الهلالى القيسى ، ويكنى أبا محمد[٢] ؛ وكذلك عبد الرحمان بن محمد بن عباس بن جوشق بن إبراهيم بن شعيب بن خالد الأنصارى ويعرف بابن الخطار ، ويكنى أبا محمد[٣].

وقد عاش بطليطلة حاتم بن محمد بن عبد الرحمان بن حاتم التميمى المعروف بابن الطرابلسى ، ويكنى أبا القاسم ، وهو جماع قرطبى أسس مكتبة عظيمة من كتب فى نهاية الإتقان[٤].

ومن أهل طليطلة البارزين هشام بن عمر بن محمد بن الأموى ويعرف بابن الحشنى ، ويكنى أبا الوليد ، جمع من المشرق عدداً عظيما من كتب حسان كثيرة[٥].

ويذكر من أهل وادى الحجارة جماع كتب ، كانت لديه كتب كثيرة ، وهو عبد الرحيم اليزدى .

وعلى الرغم من أن ثغر سرقسطة كان من أبعد المراكز عن الإمبراطورية الإسلامية ، وأن أهلها المحاربين كانوا غير شغوفين بالعلوم إلا أنها تعرضت أخيراً وبشكل عام لتأثيرات هواية جمع الكتب ، تلك الهواية التى كانت مسيطرة على الأذهان ، وأبلغ دليل على ذلك ما فعلته أسرة بنى هود التى وليت حكمها

---

(١) ابن الأبار : جـ ١ ص ١٩٨ ترجمة ٤٤٣ .
(٢) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٤٦٤ ترجمة ١٠١٦ .
(٣) المصدر السابق : جـ ١ ص ٣٢٣ — ٢٤ ترجمة ٧٠١ .
(٤) المصدر نفسه : جـ ١ ص ١٥٨ — ١٦٠ ترجمة ٣٥١ .
(٥) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٥٨٨ ترجمة ١٣١١ .

فى آخر الأيام . وكان من بين أفرادها المقتدر الفلكى الرياضى الفيلسوف الذى تحمل اسمه بقايا قصر الجعفرية ،والمستعين الذى لا يقل عنه فى هذا الشأن والذى أهدى إليه ابن بكلاريس كتابه المشهور عن الأعشاب الطبية المسمى « المستعين » والذى كان الحصول على نسخة منه سبباً من أسباب افتخار بعض المكتبات الأوربية[1]. ولكن عندما أخذ الشغف بالكتب الذى كان قد وصل إلى درجة عظيمة بين المدن الأندلسية ، ينشأ ويتطور فى هذه المدينة كان الملك ألفونسو قد فتحها . ومع ذلك فقد بقيت بها ذكرى بعض الوراقين من قلعة أيوب وسرقسطة ممن اضطروا إلى الهجرة نتيجة استرداد المدينة . ويمكن أن نذكر منهم عبد الله بن محمد بن سندور بن منتيل بن مروان التجيبى ، ويكنى أبا محمد ، وكان جماعاً للكتب والدواوين وقد توفى قبل عام ٥٠٠ هـ .[2]

وقد اختار الوراقون المهاجرون من أراجون ، مدينة بلنسية للإقامة فيها ، وهناك أسست أسرة « سيدراى » من قرطبة دكانها بعد هربها من قلعة أيوب عقب سقوطها فى أيدى المسيحيين على أثر موقعة « كوتندة » . وإلى بلنسية ذهب الوراق السرقسطى الشهير محمد بن عبد الله بن أبى يحيى بن محمد بن مطروح التجيبى ، جامع قصائد الشاعر الأراجونى ، الذى كان يجتمع فى حانوته أدباء بلنسية تجذبهم إليه نباهته وفتوته ورقته . وقد ولد عام ٥٤٠ هـ ، وتوفى عام ٦٠٦ هـ[3] ، وانتقلت إليها أيضاً أسرة ابن الصغير السرقسطى جماع الكتب ، مكرساً وقته للتجارة فيها ، وقد وجه إليها ابنه أحمد الذى تمكن من أن يصبح نساخاً ماهراً وجماعاً خبيراً للمخطوطات والكتب بحيث استطاع أن يكون منها مكتبة عظيمة . وقد عين هذا فيما بعد مديراً للمكتبة الملكية فى عهد الموحدين .

ويذكر ابن الأبار أن محمد بن سليمان بن سيدراى الكلابى الوراق من

(١) Simonet: Glosario CXLVI.

(٢) ابن الأبار : التكملة حـ ١ ص ٤٠٦ ترجمة ١٣١١ .

(٣) ابن الأبار : التكملة حـ ١ ص ٢٩٤ ترجمة ٩٠٢ .

أهل قلعة أيوب . والمعروف باسم القلعى ، ويكنى أبا عبد الله ، فتح له دكاناً فى بلنسية . وقد توفى عام ٥٤٨ هـ . ويذكر أن والده كان وراقاً أيضاً(١) .

وقد عاش ببلنسية أيضاً ، محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى النحوى ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالنسبة إلى ابن أبى البقاء خاله ، وقد ولد فى صفر عام ٥٦٣ هـ وتوفى فى ربيع الأول عام ٦١٠ هـ . وكانت صنعته نسخ الكتب(٢) .

ويجب علينا أن نتذكر الوراقين الآتيــة أسماؤهم من أهل بلنسية فنهم عبد الله بن حيان الأروشى وكانت له همة عالية فى اقتناء الكتب ؛ ويذكر ابن علقمة فى تاريخه أن ذا النون صاحب طليطلة أخذ كتب العروشى من داره وساقها إلى قصره ، وكانت تبلغ ١٤٣ عدلا من أعدال الحمالين ويقدر كل عدل منها بعشرة . ويقال أيضاً إنه كان قد أخفى منها نحو الثلث . وقد ولد العروشى عام ٤٠٩ هـ وتوفى عام ٤٨٧(٣) .

وعلى بن محمد بن على بن هذيل أبو الحسن البلنسى وقد لازم زوج أمه أبا داود المقرى ، ونشأ فى حجره ، وصارت إليه أصوله العتيقة فى فنون العلم ، وقد توفى فى رجب عام ٥٦٤(٤) .

وعبيد الله بن عبدالله بن عبد الرحمان بن مسعود بن عيسون المعافرى من أهل بلنسية ،وأصله من لبرقاط عمل أبيشة من ثغورها الشرقية ، يكنى أبا مروان ، اشتهر بجمع الكتب والكراسات والقصص التاريخى إلى غير ذلك ، وقد أسس مسجداً على مقربة من باب القنطرة Puerta de alacantara يحمل اسمه

---

(١) ابن الأبار : حـ ١ ص ١٩٩ ترجمة ٦٧٧ .

(٢) المصدر السابق : حـ ١ ص ٣٠٢ – ٣٠٣ ترجمة ٩١٨ .

(٣) الضبى : بغية الملتمس ص ٣٣٠ – ٣٣١ ترجمة ٩٢٠ ، ابن بشكوال حـ ١ ص ٢٩٣ ترجمة ٦٢٩ .

(٤) ابن الأبار : التكلة حـ ٢ ص ٦٦٦ – ٦٦٧ ترجمة ١٨٥٨ .

وكذلك منزلا ملاصقاً له لإمام المسجد ، وقد توفى عام ٥٧٣ هـ وقيل ٥٧٤ هـ(١).

وممن اشتهروا بانتقاء الكتب والدواوين والكراسات سليمان بن عبد الملك بن رويبيل بن إبراهيم بن عبد الله العبدرى ، ويكنى أبا الوليد ، وقد ولد عام ٤٩٦ هـ ، وتوفى عام ٥٣٠ هـ(٢).

وعلى بن محمد بن على بن محمد بن يحيى الغافقى أبو الحسن الشارى الأصل ، والشارة بشرق الأندلس ، السبتى ، وكان مولده عام ٥٧١ هـ ، ووفاته عام ٦٤٩ هـ(٣).

ويوسف بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبى زيد اللرى ، وهو أبو عمر بن عياد وقد توفى عام ٥٧٥ هـ(٤).

ويمكن أن نذكر من الخطاطين الذين كان يشار إليهم محمد بن حسين ابن عبد الله بن عمر بن هارون بن موسى من أهل شرن ، سكن بلنسية ، ويكنى أبا عبد الله . توفى فى ذى القعدة عام ٦٠٩ هـ(٥).

وعبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن يوسف بن سعدون الأزدى يكنى أبا محمد . وقد استكتبه بعض الرؤساء . توفى فى آخر عام ٦٢٢ هـ(٦).

وعبد الله بن عبد الملك بن عبد العزيز بن محمد بن نميل ، يكنى أبا زيد ، وكان يكسب رزقه من نسخ الكتب وعمل الحاسبين ، توفى بعد عام ٥٨٠(٧) هـ.

ومحمد بن مروان بن يونس ، من أهل لرية ، ويعرف بابن الأديب ، كان حسن الوراقة ، توفى عام ٥٤١ هـ وقيل ٥٤٢ هـ(٨).

---

(١) المصدر السابق : حـ ٢ ص ٥٣٨ ترجمة ١٥١٢ .
(٢) ابن بشكوال : حـ ٢ ص ٦٣٩ ترجمة ١٤٣٠ .
(٣) ابن الأبار : التكلة حـ ٢ ص ٦٨٧ ترجمة ١٩٢٢ ، جذوة المقتبس ص ٣٠٨ .
(٤) المصدر السابق : حـ ٢ ص ٧٣٤ ترجمة ٢٠٨١ .
(٥) ابن الأبار : التكلة حـ ١ ص ٣٠٢ ترجمة ٩١٧ .
(٦) المصدر السابق : حـ ٢ ص ٥١٤ ترجمة ١٤٤٦ .
(٧) المصدر السابق : حـ ٢ ص ٥٧٠ ترجمة ١٦١١ .
(٨) المصدر السابق : حـ ١ ص ١٨٧ ترجمة ٦٥١ .

وابن صنفى وهو محمد بن عبد الوهاب بن عبد الملك بن غالب بن عبد الرءوف بن غالب بن فنيس العبدرى الوراق ، من أهل بلنسية ، وأصله من طرطوشة ، ويكنى أبا عامر ، وكان موثوناً به إذ كان ضابطاً حسن الوراقة(١).

وعبد الله بن إبراهيم بن الحسن بن منتيال الوراق ، من أهل مربيطر ، يكنى أبا محمد ، وكان له دكان كتب فى القيسارية بالرغم من رداءة خطه ، ولد قبل عام ٥٥٠ هـ ، وتوفى فى ذى القعدة عام ٦١١ هـ (٢) .

وأخيراً خلف بن عمر من أهل جزيرة شقر ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بالأخفش . كان معلماً مشهوراً ، ووراقاً محسناً ، وكان يتنافس فيما يكتب ويغالى فيه ، توفى بعد عام ٤٦٠ هـ(٣).

وكان ببلنسية مدرسة خاصة بالخطاطين(٤).

أما البقاع الأخرى من الإقليم الشمالى فكان بها أيضاً خطاطون وجامعو كتب ، ففى جزيرة شقر امتاز محمد بن محمد بن يحيى بن خشين ، ويكنى أبا عبد الله ، وكان يكتب المصاحف ، ولم يكن أحد من أهل زمانه يدانيه فى المعرفة بنقطها والبصر برسمها مع جودة الخط والإتقان ، توفى فى حدود عام ٦٣٠ هـ(٥).

وفى شاطبة . أقام محمد بن يوسف بن سعادة مولى سعيد ابن نصر مولى عبد الرحمان الناصر . من أهل مرسية ، ودار سلفه ببلنسية ، ويكنى أبا عبد الله وقد ورث كتباً قديمة ومخطوطات قيمة عن ابن سكرة ، وهو أبو على الصوفى وكانت فى غاية الصحة . وكانت له مكتبة غنية فاخرة ، وكان صوفياً وتلميذاً

---

(١) المصدر نفسه : حـ ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ترجمة ٧١٢ .
(٢) ابن الأبار : التكملة حـ ٢ ص ٥٠٦ ترجمة ١٤٣٤ .
(٣) المصدر السابق : حـ ١ ص ٤٨ ترجمة ١٥٩ .
(٤) انظر Julián Ribera y Tarrago: Disertaciones. vol. II p. 304 - 8.
(٥) ابن الأبار : المصدر نفسه : حـ ١ ص ٣٤٠ ترجمة ٩٩٤ .

للغزالى وناصحاً أميناً لقاضى شاطبة ، وتوفى بها عام ٥٦٦ هـ وكان مولده بمرسية عام ٤٩٦ هـ(١).

وكذلك لب بن محمد بن محمد من أهل شاطبة ، ويعرف بالبلنسى ، ويكنى أبا عيسى ، كانت لديه أصول عتيقة ، توفى فى غرة جمادى الأولى عام ٦٣١ هـ(٢).

وقد ذاع صيت ابن الرومية ، عالم النبات المشهور ، فى شاطبة فى جمع الكتب فى مختلف العلوم ، وقد ساعده على ذلك غناه الفاحش وكرمه الزائد الذى سمح له أن يعطى الكتب لمن يطلبها ولو كان المطلوب مخطوطاً أصلياً نادراً تعد ملكيته شرفاً لمقتنيه ، وكان يفعل ذلك استجابة لرغبته فى أن يتعلم الآخرون ، وكان على مذهب ابن حزم الفيلسوف القرطبى المشهور(٣).

أما فى مرسية ، فقد تفوق فيها بخطها الجميل كل من على بن محمد بن ديسم أبوالحسن المرسى ، وكان يعيش من الوراقة(٤)، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أحمد بن عبد العزيز ، ويكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن حمنال ، وكان يكتب المصاحف ويجيد نقطها ويعرف رسمها مع براعة الخط وحسن الوراقة(٥).

وممن رحل إليها ، بعد أن عاش مشتغلا بالسياسة حقبة طويلة فى قرطبة وبلنسية ، ابن الفرج من غرناطة وكان جماعاً للكتب ، عنده مكتبة مختارة ، وكانت المخطوطات المكتوبة بخطه فى غاية القيمة ، ولم يكن لها فى عصره مثيل ، وقد جمع منها قدراً كبيراً . وابن الفرج هذا هو محمد بن عبد الرحيم بن الفرج ابن خلف بن سعيد بن هشام الأنصارى الخزرجى ، من ولد سعيد بن عبادة ويكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الفرج ، ولد عام ٥٠١ هـ ، وتوفى عام ٥٦٧ هـ(٦).

---

(١) الضبى : ص ٢٨٩ — ٢٩٠ ترجمة ٧٧٨ ، ابن الأبار : التكلة حـ ١ ص ٢٢٣-٢٢٦ . ترجمة ٧٤٦ ، المقرى : حـ ١ ص ٦٠٧ .

(٢) ابن الأبار : المصدر السابق : حـ ١ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٣) الإحاطة : حـ ١ ورقة ٤١ ب .

(٤) ابن الأبار : التكلة : حـ ٢ ص ٦٧٩ — ٦٨٠ ترجمة ١٨٩٨ .

(٥) المصدر السابق : حـ ١ ص ٣٤٢ ترجمة ١٠٠١ .

(٦) المصدر نفسه : حـ ١ ص ٢٢٧ — ٢٢٩ ترجمة ٧٥٠ .

ومحمد بن غلبون بن محمد بن عبد العزيز بن غليون بن عمر الأنصارى ، من أهل مرسية . ويكنى أبا بكر ، صديق ابن الأبار المؤرخ البلنسى ، وكانت عنده أيضاً مكتبة حافلة بالأصول العتيقة ، والدفاتر الأنيقة ، والكتب الجميلة غير أنها ضاعت لاختلال عقله قبل وفاته بمدة ، وبيع أكثرها وهو لا يشعر (١).

وقد لوحظ أن العلماء والسياسيين كانوا يلجئون إلى الولايات الحرة كلما تقدمت حركة الاسترداد ، ولذا كانت غرناطة المكان الذى أقام فيه كثير منهم ، وحافظت بهذا على هواية جمع الكتب زمناً طويلا . ومن ثم زاد عدد جماعى الكتب فيها عن غيرها من الأقاليم إذ يمكن أن نضيف إلى جماعى الكتب من المواطنين من هاجر إليها منهم من أهل الأقاليم الأخرى .

وإذا استطعنا أن نتوقف قليلا فى زيارتنا البسيطة هذه — وكانت عبئاً ثقيلا على — لمكتبات إسبانيا الإسلامية ، لدخلنا مكتبة « بنى الأحمر » الملكية بغرناطة ولتعرفنا على أمنائها العلماء الذين يشرفون عليها . ثم نقوم بعد ذلك بزيارة للمكتبات الخاصة مثل مكتبة الزبيدى التى سرقها اسكيلولا ثم أعيدت فيما بعد بفضل رجال سلطان غرناطة ، ومكتبة ابن فرحون التى اكتسبت قيمة مما كانت تشتمل عليه من مخطوطات هامة قام هذا الفنان بتزيينها بالرسوم ، ومكتبة « الطراز » التى كان يزورها الأدباء ليعارضوا ما لديهم من نسخ على ما بها بغية تصحيحها (٢) ، أو مكتبة ابن لوب ، ذلك الخطيب المفوه والمجادل الذكى والمتدين الزاهد الذى اعتاد أن يرحل إلى الأقاليم المسيحية الإسبانية ليتناقش علناً مع الأساقفة الإسبان وبخاصة فى تلك الفترة التى نشبت فيها المعارك القاسية بين أتباع الدينين ، ولكن لكى نقف على مدى ما وصل إليه شغف الناس بجمع الكتب علينا أن نزور شارع الوراقين لنرى كيف ترك الفقهاء والمحامون أعمالهم اعتقاداً منهم بقلة جدواها وأقبلوا على

---

(١) ابن الأبار : التكلة : جـ ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ ترجمة ١٠٣٩

(٢) الإحاطة : جـ ٢ ورقة ١٣٩ ب .

بيع الكتب لما كانت تدره عليهم من أموال تكفى لأن يعيشوا خلال ما تبقى لهم من سنوات عيشة هادئة بعد حياة حافلة بالمتاعب والمسئوليات .

وقد حدث أن فناناً نابهاً وخطاطاً ماهراً هو ابن سكران ، من أهل بلنسية . أخذ يوماً بعضاً من وثائق كانت محفوظة فى مسجد البيازين مع أنه كان فى مقدمة المسئولين عن مكتبة سلاطين غرناطة . وقد أدى هذا الأمر إلى إبعاده .

وقد حزن الزبيدى المعلم الشهير من أهل جيان وجماع الكتب المعروف على سرقة مكتبته وبخاصة لأنها كانت تشتمل على مخطوطات كتبها إملاء عن أساتذته ، وقد توفى الزبيدى فى غرناطة (١) .

ويذكر أن الشاعر الذاتى الغزيز ابن ساره من أهل شنترية ، كان نساخاً ووراقاً ، وكان يتعيش من هذه الحرفة فى غرناطة(٢).

وقد وصل ابن باليس الغرناطى إلى درجة عظيمة من الشهرة والحظ فى تجارة الكتب ، وكان على أخلاق عظيمة متديناً وأديباً(٣).

ويذكر ابن الخطيب معلمه الورع أبا القاسم الكابى ضمن من يذكر من الجماعين الهواة الذين أسسوا مكتبات عظيمة(٤) ، وأبا عبد الله الطراز الذى نالت مخطوطاته الفخمة الرائعة درجة عظيمة من الثقة كنماذج للإتقان والدقة(٥).

وكان هناك عدد من الخطاطين الفنانين والنساخين الممتازين مثل ابن فرحون ، الذى حاز الإعجاب برشاقة خطه وزخرفة كتابته بالرسوم(٦) ، وابن عامر الحجوارى الذى نسخ كثيراً من الكتب اعتبرت نماذج تحتذى(٧).

---

(١) الإحاطة : حـ ١ ورقة ٣٤ ب .
(٢) المصدر السابق : حـ ٣ ورقة ٩٩ ب .
(٣) شرحه : حـ ٢ ورقة ١٤١ ب .
(٤) شرحه : حـ ٣ ورقة ١٣٧ ب .
(٥) شرحه : حـ ٢ ورقة ١٤٦ ا ، الجذوة : ص ١٧٦ .
(٦) الإحاطة : حـ ١ ورقة ٤٧ ب .
(٧) الإحاطة : حـ ٣ ورقة ١٤٩ ب .

ومنهم أبو عبد الله العابد من أهل فاس ، وأقام بغرناطة هو وأحد أولاده . وقد تقلد مناصب رفيعة فى ديوان السلطان ، وقد ورث كتبه الثمينة ابن الأشيب معلم ابن الخطيب(١).

أما ابن لوب المالقى الذى عاش ردحاً من الزمن فى غرناطة ، فقد أوقف جزءاً كبيراً من مكتبته على جامع مالقة (١).

وبعد أن انتهت حركة الاسترداد ، ظل بين ظهرانينا ، الموريسكيون الذين حافظوا على هواية المخطوطات ، ولكن بشكل بسيط على قدر ما سمح به الزمن الذى كانوا يعيشون فيه . وقد قاوم شعبنا (الإسبانى) مسألة انتشار التعليم الإسلامى بين الرعايا الذين يدينون بالإسلام مقاومة عنيفة ، وأدت أوامر التحريم المتكررة إلى اعتبار هذا الميل خطيئة وسبب التغالى فيها يوماً بعد يوم اختفاء ذلك نهائيا بطرد الموريسكيين من البلاد .

وبعد فهل كان عند المسلمين كتب ومكتبات أكثر مما ذكر ؟

وألا تدل القلة الحالية للكتب العربية على أن ما ذكر كان خرافة أو غير معقول ؟

إن السبب الذى أدى إلى تضاعف عدد المخطوطات عند المسلمين كان هو نفسه أيضاً السبب فى تلفها السريع ، فذلك الورق السميك الجاف اللامع الذى كانت تنتجه المصانع الإسبانية . كان على الرغم مما يدل عليه مظهره من مقاومة لفعل الزمن ضعيفاً هشاً إذا ما قورن بالورق ، ويتحال كالألياف بفعل الرطوبة فضلا عن صلاحيته الفائقة من ناحية أخرى كغذاء للفئران والعثة وإيقاد النار ، ولا يتحمل التنقل من يد إلى أخرى باستمرار ولمدة طويلة إذ أنه يتمزق بسهولة . وهكذا كان استخدام الكتب مضراً بها ، ويجعلها غير صالحة للدراسة ، ويستخدم ما يتبقى منها لأغراض أخرى . ويضاف إلى هذا ما قام به المهاجرون من ترحيل كتبهم ووقوعها فى أيدى الجهلة ممن

---

(١) المصدر السابق : حـ ٢ ورقة ٨٢ أ ، ٨٣ ، ٨٤ .... الخ .
(٢) المصدر نفسه : حـ ٢ ورقة ١٥٧ ب .

ممن لا يحسنون المحافظة عليها إلى غير ذلك من أسباب . وهكذا نجد أسباباً كثيرة أساسية لفقد الكتب كانت تحل بها ببطء وسكون دون مراعاة للأحداث التي تملأ التاريخ .

ولا شك أن كتباً كثيرة قد فقدت بسبب الظروف السيئة ، مثل ما حدث لعبد الرحمان بن موسى الهواري من أهل استجة ، ويكنى أبا موسى ، إذ رحل إلى المشرق في عهد عبد الرحمان الأول وقدم الأندلس صادراً من سفره فعطب ببحر تدمير فذهبت كتبه وعندما هنأه أهل استجة بقدومه وعزوه عن ذهاب كتبه قال لهم : ذهب الخرج وبقي الدرج يعني ما في صدره(١).

وقد حدث الشيء نفسه لأفلح مولى الناصر عبد الرحمان بن محمد أمير المؤمنين ، ويكنى أبا يحيى(٢)، ولعبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمان ابن سليمان بن عمر بن خلف بن حوط الله الأنصاري الحارثي من أهل أنده ؛ ولد في رجب عام ٤٩ هـ وتوفي في ربيع الأول عام ٦١٢ هـ(٣).

وقد نقل كثير من الكتب الأسبانية إلى بلاد المشرق، فمثلا جماع الكتب الإسباني عطية بن سعيد بن عبد الله ، ويكنى أبا محمد الصوفي طاف بالمشرق ويقال إنه جمع كتباً كثيرة حملها على قافلة من عدة جمال على الرغم من أنه كان يعيش عيشة فقيرة وقد توفي بمكة عام ٤٠٨ هـ وقيل ٤٠٩ هـ .

أما الحميري المؤرخ فقد أوقف كتبه على العلماء بالمشرق(٥)، وكذلك فعل محمد بن علي بن ياسر الأنصاري من أهل جيان ، فقد أوقف كتبه على طلبة العلم بالمشرق(٦)، وقيل على أصحاب الحديث على ما يقول ابن الأبار(٧)، وكان أميناً لمكتبة نور الدين وتوفي في جمادى الأولى عام ٥٦٣ هـ .

---

(١) ابن الفرضي : حـ ١ ص ٢١٥ — ٢١٦ ترجمة ٧٧٦ .
(٢) المصدر السابق : حـ ١ ص ٧٦ ترجمة ٢٦٠ .
(٣) ابن الأبار : التكلمة حـ ٢ ص ٥٠٦ — ٥٠٩ ترجمة ١٤٣٥ .
(٤) ابن بشكوال : حـ ٢ ص ٤٣٩ — ٤٤٢ ترجمة ٩٦٠ .
(٥) المقري : حـ ١ ص ٥٣٥ .
(٦) المقري : حـ ١ ص ٤٩٩ .
(٧) ابن الأبار : التكلمة : حـ ١ ص ٢١٨ — ٢١٩ ترجمة ٧٣٦ .

وقد رحل نبيل الدين بن هلال الأندلسى إلى المشرق وأهدى كتبه إلى صديقه « الشرف » من أهل مرسية(١).

ولقد وصل عدد لا يحصى من العلماء الإسبان إلى المشرق ، اضطرتهم إلى ذلك حركة الاسترداد المسيحية ، ولذا لا نستغرب ما تقوم به المطابع فى البلاد الشرقية فى الوقت الحاضر من نشر أشهر مؤلفات الإسبان كالصوفية المسلمين مثل ابن عربي ، والنحويين مثل ابن مالك ورجال السياسة مثل أبي بكر الطرطوشي وقراء القرآن مثل ابن قره الشاطبي والشعراء مثل ابن خفاجة وابن خاقان ... الخ .

وقد نقلت إلى شمال أفريقية وبخاصة المغرب كتب إسبانية فى عصور مختلفة ، فبعد وفاة المنصور وابنه هرب كثير من العلماء الإسبان من الفتنة إلى فاس (٢) .

وقد حضر إلى أسبانيا طلبة من المغاربة للدراسة وحملوا عند عودتهم إلى أوطانهم ما كانوا قد جمعوه من كتب هامة كما فعل يصاتن بن داود الأغماتى ، ويكنى أبا عبد الرحمان وقد توفى عام ٣٧١ - ٣٧٢ هـ (٣) ومحمد بن عبد الحق بن سليمان أبو عبد الله الكرمي من تلمسان ، توفى عام ٦٢٥ هـ(٤).

ويمكن أن نقول إن مكتبة أسرة ملجوم المغربية وأصلها من شرق الأندلس والتى كانت تحتوى على دفاتر جليلة الشأن لم يكن لأحد من أهل العصر مثلها ، قد جمعها صاحبها فى إسبانيا ، وهو عبد الرحمان بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عيسى الأزدى الأهوانى ، يكنى أبا القاسم وتشهره العامة بابن رقية ولد عام ٥٣٥ هـ وتوفى عام ٦٠٥ (٥)هـ .

---

(١) المقرى : جـ ١ ص ٨٩١ .
(٢) المراكشى : ص ٢٦١ .
(٣) ابن الفرضى : جـ ٢ ص ٧٢ ترجمة ١٦٤٧ .
(٤) ابن الأبار : التكملة : جـ ٢ ص ٧٥١ - ٧٥٢ ترجمة ٢١٣٧ .
(٥) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٥٩٠ ترجمة ١٦٥٢ ؛ ص ٦٨٩ - ٦٩٠ ترجمة ١٩٣٠ ، الجذوة : ص ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ .

ورحل إلى مراكش بعض النساخين والوراقين من الإسبان مثل الوراق الغافقى من أهل كرمونه(١) ، وآخر من خيمينه وكان يبيع نسخه من الكتب بأسعار مرتفعة جداً(٢)، ومنهم جماع الكتب ابن رشيد الذى عاش فى غرناطه وتوفى فى فاس(٣) . وتحتفظ مكتبة الأسكوريال ببعض مخطوطات بخطه .

ومع كل فقد حفظت لنا التواريخ أدلة تكفى لتوضيح دمار آلاف وآلاف من المخطوطات ، وأشير هنا إلى الحرائق المتعمدة التى كانت تحدث علناً وعلى أيدى الشعب نفسه وفى احتفال عظيم .

كان إحراق المخطوطات العربية فى إسبانيا طوال عدة قرون عيداً واحتفالا شعبياً عظيما ، ولعل قليلا من أمم العالم قد جنت ثمرة هذا السرور الذى يشترك فيه المسلمون والمسيحيون ، ولكن يجب ألا نظن أن ذلك كان نتيجة لاحتقار العلوم أوحقداً منا على المسلمين وعلومهم ، بل على العكس فإن ذلك كان كان بفضل الحماس المتزايد ، أو المبادئ المغالى فيه وهى ميزة خاصة فى شعبنا . وفى الشعوب المتأخرة حيث لا يعرفون القيمة الحقيقية للكتب، لا يكتبونها ولا يحرقونها ؛ أما فى بلاد كبلادنا نحن « الإسبان » حيث يلاحظ سريعاً قوة تأثير الكتب كوسيلة أو أداة لنشر الأفكار ، فإنه يلجأ إلى إحراقها لمنع انتشار مذاهب خطيرة أو إلحادية تعارض المعتقدات التى ترى العامة سلامتها وصحتها .

ولما كان هذا الأمر يبدو شاذاً فإننا سنعطى هنا فكرة سريعة حتى نستطيع أن نقدره ونتبينه فى مجموعه .

حينما كان التعليم غير منتشر بصورة كافية بين المسلمين بعد استيلائهم على إسبانيا ، لم يدر بخلد الناس ما قد يشتمل عليه الكتاب من خطر ؛ ولكن بعد أن توطدت أركان مذهب مالك لتقاوم دخول المذاهب الأخرى الوافدة من المشرق بدأ فعلا إحراق الكتب فى إسبانيا الإسلامية . وفى بداية الأمر

(١) الجذوة : ص ٢٨٣ .
(٢) المصدر السابق : ص ٧٨ .
(٣) الإحاطة : ﺟ ٣ ورقة ١٥ ب .

تولى الشعب بنفسه ، بدافع من الفقهاء . أمر العدالة ، فوجه التهم وأساء معاملة الأشخاص الذين تشير إليهم الشائعات بأنهم أدخلوا أفكاراً خطيرة ، وإذا لم يتم هذا بإعلان توبته ثار الشعب ضده . واقتحم بيته وأحرق كتبه . كما حدث مع ابن مسرة الفيلسوف . أما بعد ذلك عندما توفى ابن كليب الذى أدخل المذهب الفلسفى الشرقى القائل بالاختيار ضد الجبرية كان العلماء، على هيئة، لجنة هم الذين دخلوا بيته وأخرجوا كتبه إلى الطريق العام لإشعال النار فى كل ما لا يمت بصلة إلى المذهب الذى يعتنقونه(١) . ومما لا شك فيه أن هذا التفتيش كان غير رسمى وقام به العلماء دون مراعاة للقوانين أو النظم السائدة ؛ وقد أعلنت الحكومة عدة مرات عن كراهيتها لهذا التدخل فى أعمال كان من الواجب أن تسير وفق القوانين من اتهام ومحاكمة أمام المسئولين ، وقد عالج الأمويون هذا العنف فى كثير من الحالات بتسامح كبير كما حدث فى عهد الحكم ، ولكنهم لم يتأخروا عن مقاومته دائماً وكانوا يضطرون إلى أن يخرجوا من إسبانيا الأشخاص الذين لا تؤمن حياتهم دون حماية منهم .

والدليل على أن التحمس الشعبي هو الذى كان السبب فى هذه الأحداث وليست رغبة الحكومة نجده بوضوح أيام المنصور ، إذ كان هو شخصياً شغوفاً بكتب الفلسفة وغيرها من كتب الحكمة التى كان ينكرها شيوخ المسلمين والشعب على السواء ، وكان يحفظ فى أماكن أمينة من خزانته المجلدات التى تدعو إلى إثارة الشك ، وفيما بعد عندما صار رئيساً للحكومة نظم فوراً حملة تفتيش مؤلفة من العلماء كوسيلة لإرضاء أفراد الرعية الذين أعربوا عن رغبتهم فى تفتيش مكتبة الحكم التى كان يرى الشعب أنها تضم كثيراً من المؤلفات الخطيرة الإلحادية ، ولم تحل دون ذلك مكانة صاحبها أوشهرته ولا أنها مكتبة والد السلطان الحاكم . وقد أخرج المفتشون كثيراً من الكتب المشكوك فيها إلى بهو القصر وأشعلوا فيها النيران فى حضرة المنصور نفسه الذى ساعد بيديه فى تقديم نسخ منها إلى النيران . وقد قدمت إلى النيران كتب الفلسفة والفلك

---

(١) ابن الفرضى : حـ ١ ص ١٢٠ — ١٢١ ترجمة ٤١٧ .

العليا والمناقشات الدينية إلى غير ذلك من الموضوعات إذ اعتبر كل هذا خطراً ، وأبقى فقط على كتب الطب والرياضة ، ومبادئ الفلك والقانون وغيرها من المواد البريئة .

ومما لا شك فيه أنه لم يكن من الميسور فحص الأربع مئة ألف مجلد التى كانت تضمها المكتبة فى وقت قصير ولا القيام بعملية اختيار دقيق ، ولذا نجت كتب كثيرة كان من الواجب إحراقها وذلك بفضل تلك النظرة القصيرة التى كانت تسيطر على الفقهاء ؛ وقد ثبت هذا بعد سنوات عندما نشبت الحرب الأهلية التى أشاعت الحزن والكآبة فى قرطبة ، عندما دخل البربر المدينة وانتزعوا القصر من الخلفاء إذ عثر تحت الأنقاض وفى السراديب وفى مجارى المياه على عدد من كتب مكتبة الحكم التى لم يقدر لها أن تسرق أو تباع بأبخس الأثمان على أيدى هذه الفئة الطاغية من الجنود الأفريقيين التى جلبها المنصور ليكون منها جيش السلطان .

ويذكر ابن سعيد أن الجزء الأكبر من الكنوز الأدبية التى كانت تشتمل عليها مكتبة الحكم الثانى قد وزعت فى أنحاء البلاد فى إشبيلية وقرطبة والمرية وغيرها من المدن « وقد عثرت أنا بنفسى على بعض منها فى مدينة طليطلة كانت قد أنقذت من التدمير أيام المنصور ، وهى تتعلق بموضوعات كان من الواجب أن تحرق من أجلها على ما يظهر »(١).

ويمكننا أن نقول إنه عندما سقطت الإمبراطورية وقسمت إلى عدد من الدول أو الملكيات التى يحكم كل منها أمير له ميوله الخاصة ، كانت تلك الفترة أكثر الفترات حرية وتسامحاً ، وتعرض خلالها الفقهاء أنفسهم للسخرية ولم يكن يهتم بهم بعض ملوك الطوائف . .

وكان التفتيش يجرى فقط فى بعض المدن الأندلسية مثل إشبيلية فى الأسواق والحوانيت وذلك بحثاً عن كتب مشكوك فيها لإحراقها فى الميادين علناً وباحتفال دينى عظيم .

---

(١) Gayangos: History I. page XLXLI.

وقد حدث مثل هذا مع كتب ابن حزم ذلك الرجل المتدين الذى كان يحقد عليه الفقهاء(١).

وقد قوى ساعد رد الفعل الدينى بمجىء المرابطين وزاد من نشاطه وبعث فيه الحماس ما كان يقوم به بعض الملوك وأفراد الشعب من عدم تمسكهم بالدين وقلة تحمسهم للقيام بالواجبات التى فرضها عليهم القرآن ، وقد أرسل السلطان المرابطى أوامره إلى مختلف أنحاء إسبانيا بإحراق كتب الفلسفة التى قد توجد عند الأشخاص بما فى ذلك الفقهاء أنفسهم . وقد أثارت هذه الأوامر من ناحية أخرى معارضة شديدة من جانب الفقهاء المسلمين ولكنها كانت أصواتاً فردية لم تؤت ثمرتها ، أمام الحكام الذين كانوا يميلون إلى التسامح فقد استبدلوا بغيرهم ونفذت الأوامر بشدة .

وعلى الرغم من أن بعض الشخصيات الأفريقية من المرابطين كانت تشغل مناصب هامة هنا فى شبه الجزيرة وكانوا جماعى كتب ممتازين مثل المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجى اللمتونى ، ويكنى أبا على الذى يقال عنه إنه كان شغوفاً جداً بالأصول والكتب العتيقة التى جمع منها عدداً كبيراً توفى عام ٥٤٩ هـ(٢)؛ فإن الحكم المرابطى لم يكن يميل كثيراً إلى كتبنا إذ أنه فضلا عن إحراق كتب الغزالى(٣) ، وسلب المكتبات مثل مكتبة عبد الرحمان بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن إبراهيم بن محمد بن أبى ليلى الأنصارى ، ويكنى أبا بكر ، وقد ولد فى المحرم عام ٤٩٠ هـ وتوفى فى رمضان عام ٥٦٦ هـ(٤)، ولم يكف على بن تاشفين عن جمع الكتب من مختلف الأقاليم الإسبانية ليكون مكتبته القيمة التى لم يستطع أى ملك مغربى أن يكون له مثلها(٥) .

(١) عن ابن الخطيب : انظر Lerchundi: Crestomatia. page 93-94.

(٢) ابن الأبار : التكملة حـ ١ ص ٢٩٢ ترجمة ١١٢٢ ، ابن الأبار : المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصوفى ص ١٩٣ — ١٩٥ ترجمة ١٧٣ .

(٣) المراكشى : ص ١٢٢ .

(٤) ابن الأبار : التكملة حـ ٢ ص ٥٦٦ — ٥٦٧ ترجمة ١٦٠٣ .

(٥) المراكشى : ص ١٧٠ — ١٧٢ .

ثم انتقل الحكم بعد سنوات فى المغرب إلى الموحدين وهم من أتباع الطريقة المدرسية ولذا كانوا من محبي الفلسفة ، وعندما وصلوا إلى إسبانيا اتبعوا مذاهب أسلافهم المتطرفة فأمروا بإحراق كل كتب المذهب المالكى، المذهب الرسمى الوحيد إلى ذلك الحين فى إسبانيا وبدءوا فى جمعها وحملها إلى العدوة الأخرى من المضيق وبقوافل لاحضر لها حملت هذه إلى فاس حيث أحرقت ظلماً ، ولما كان هذا العمل يعد بمثابة اعتداء خطير على المذهب السنى الوطنى الإسبانى ، فقد جرت بين الشعب فكرة مؤداها أن سلاطين الموحدين كفرة أو غير مؤمنين مما دفع سلاطين الموحدين إلى اضطهاد الفلاسفة للقضاء على هذه الفكرة ، ولذا نجد ابن رشد وابن طفيل يتعرضان للاضطهاد والامتحان هما وكتبهما، بعد أن كانت تسند إليهما المناصب وينالهما التشريف من قبل هؤلاء السلاطين التى أهديت إليهم مؤلفاتهما الفلسفية، التى غدت نادرة جداً وأصبح من الصعب المحافظة على نسخة واحدة منها لولا أنها ترجمت إلى اللاتينية أو العربية على أيدى اليهود الذين طردوا من البلاد كما حدث للفيلسوف المشهور ابن ميمون .

وكان الموحدون أيضاً من هواة جمع الكتب ، واستخدموا نساخين وخطاطين من الإسبان ، منهم أبو العباس بن الصخيرة من أهل المرية وأبوه من بلنسية وجده من سرقسطة وكانت النسخ التى يكتبها مرتفعة القيمة ، وقد عينه السلطان أبو يعقوب أميناً لمكتبته(١) .

ولكن تعصب هؤلاء الأفارقة قد أصاب الكتب المالكية أحياناً فأحرقوها(٢) والكتب الفلسفية أحياناً أخرى(٣).

وفى بعض المناسبات دفعهم حرصهم إلى الحصول على الكتب التى يريدونها إلى استخدام العنف أو الألتجاء إلى النهب كما فعلوا فى المكتبة العلمية لأبى الحجاج المورينى من أهل إشبيلية(٤).

---

(١) الإحاطة : حـ ١ ورقة ٣٢ ب .
(٢) ابن الأبار : التكلة حـ ١ ص ٢٧٦ ترجمة ٨٢٠ ، المراكشى : ص ٢٢٥ .
(٣) المراكشى : ص ٢٢٥ .
(٤) المراكشى : ص ١٧٠ - ١٧٢ .

وقد أحرقت بعض المجموعات الإسبانية فى بعض المناطق الأفريقية ففى تونس أحرقت علناً فى الميدان كتب المؤرخ البلنسى ابن الأبار (١).

وهكذا أدى اختلاف وجهات نظر الحكام المتتالية إلى التهام رأس المال الذى جمعه هواة الكتب الإسبان بكل حماس ، على الرغم من تجديده بعض الشيء فى فترات السلام والحرية النسبية ، أما الكتب التى لم تحرق وحفظها المسيحيون والموريسكيون واليهود فقد فقدناها نحن عن طريق الإهداء كما حدث فى عهد سانشو الرابع (الذى وعد بنى مرين بتسليمهم الكتب الموجودة فى دولته وسلمهم فى دفعة واحدة ثلاثة أحمال). أو بإحراقها ولم يكن هذا إلا جريمة كتلك التى اقترفها المسلمون وكانوا مثلا اقتدينا به نحن فى هذا الشأن ويذكر روض القرطاس عند إشارته إلى هدية سانشو الرابع بعض المخطوطات الهامة التى كانت ضمن هذه الأحمال(٢).

ومن أشهر الحرائق التى حدثت فى إسبانيا المسيحية وكانت بداية لأعمال التخريب ، هو ذلك الحريق الذى أضرم فى ميدان باب الرملة بمدينة غرناطة تنفيذاً لأوامر الكردينال ثسنيروس . وقد التهمت نيرانه آلاف المخطوطات الثمينة ذات الخط الفنى الجميل الرائع وكما يقول الأب الكوليا Alcolea كانت هناك مخطوطات محلاة بالذهب والفضة و الجواهر ، قدرت بمبالغ عشرة آلاف ريال وقد أظهر بعض المتفرجين استعدادهم لدفع ثمنها فى الحال إذا كانت هناك رغبة فى بيع هذه الكتب .

ولم يكن هذا الحدث أكثر من محاولة ، أما فيما بعد ، فإن الحريق الذى حدث عام ١٥١١ م بناء على قرار من الملكة «خوانا» فقد سجله التاريخ وكان على الموريسكيين بناء على هذا القرار أن يتقدموا إلى القضاة كل ما قد يكون فى حوزتهم من كتب عربية لفحصها على أن ترد كتب الفلسفة (التى لم يكن باقياً منها شيء لأنها كانت قد أحرقت) وكتب الطب والتاريخ (وهى قليلة عندهم) ، وتحرق الكتب الخاصة بالقانون والدين وهى أكثرها عدداً(٣).

---

(١) المراكشى ص ١٧٠ ١٢٢

(٢) المقرى ح ص ٨٦٨

(٣) روض القرطاس Beaumier ص ٥٢٥ ، ابن خلدون : التاريخ ح ٧ .

ومنذ ذلك الحين أوقف المجمع المقدس الإعلان عن الكتب وأخذ على عاتقه إحراقها وعقاب المتهاونين أو المحتالين ، ولكن الموريسكيين استطاعوا مع ذلك إخفاء كثير منها وإنقاذها من الحريق، إذ لوحظ أيام طردهم من إسبانيا على ما يقول فراى ماركوس من وادى الحجارة : إنه قد عثر فى منازل المبعدين على كثير من الكتب الدينية الإسلامية والمصاحف ذات العلامات الملونة باللون الأحمر والأزرق ورسوم وحروف غريبة مما دفع المسيحيين القدامى إلى اتخاذها برهاناً على الكذب والنفاق واعتبارها عملا من أعمال السحر والشعوذة .

ومن بين الحوادث الكثيرة التى يمكن أن نذكرها فى هذا الصدد ما أشار إليه اسكولانو فى كتابه Decadas (الكتاب العاشر ، الفصل الأربعون) أن قاضى Altea فاجأ عند عودته فى أغسطس سنة ١٥٨٤ م إلى قصره موريسكيا يحمل عدلا به مصاحف مكتوبة بخط مزين وملون وكانت تخص على حد قوله عماً له يسمى خونطار وهو فقيه تلك المنطقة ، وقد اعتقله وقدمه إلى المجمع المقدس(١) .

وقد ساعدت هيئات أخرى على إشعال حماس المفتشين وتقويته ، فقد جرت فى القرن ١٧ م محادثات دبلوماسية بين ملوك إسبانيا وسلاطين مراكش، الذين طلب مندوبوهم استرداد ما كانت تشتمل عليه مكتبة الأسكوريال من كتب عربية استولى الإسبان على الجزء الأكبر منها عندما أسرت بحريتهم بعض سفن كانت تحمل مكتبة مولاى زيدان . وقد رفع الأمر إلى المفتش العام لأخذ رأيه ، وقد أفتى بعدم رد كتب الدين الإسلامى لأنها تساعد على انتشار هذا الدين، ورأى أن يرد بدلا عنها كتب الفلك والطب والهندسة والتاريخ وغيرها إلا إذا رأى مجلس الدولة رأياً أفضل من هذا واضعاً نصب عينيه ما فعله ثيسنيروس من إحراق خمسة آلاف مخطوطة بعد الاستيلاء على غرناطة وهى أفضل وسيلة . وعندما عرض الأمر على مجلس الدولة قدر وجهة نظر المفتش وقرر بإجماع الأصوات إحراقها جميعاً ، ولم يكن هناك إلا أصوات قليلة ترى الاكتفاء بحرق كتب الدين فقط . ولكن القدر الذى كان يدخر

---

(١) Simonet: El Cardinal Cisneros. 6

خطئاً أفضل لهذه المكتبةالعربية الوحيدة الموجودة بأسبانيا قد حفظها من الحريق نتيجة تدخل المركيز بيلادا Velada الذى أوصى الملك بحفظها فى مكان أمين وقد قبل الملك وجهة نظره .

وعلى هذا يمكن أن نلاحظ كيف أن ألسنة اللهب كانت على وشك أن تلتهم هذا القدر الضئيل الذى نفخر به الآن .

وإنى لا ألوم مطلقاً تصرف الكاردينال ثيسنروس العظيم ولا المفتشين ، وليست لدى رغبة لأقلل من شأن هذا التصرف،إذ لم يكن الدافع له الحقد على الآداب أو الفنون كما كان الواجب أن يكون عليه موسس جامعة القلعة Alcala ، ولم يكن على أقل تقدير احتقاراً للآداب العربية التى أمر أن يحفظ منها كتب الفلسفة والطب والتاريخ ، ولكن من العدل والحقيقة دون تحقير للعمل أن نأسف ونحزن لوقوع هذه الأفعال . وليس من اتهام لأحد لأن الرقابة كان عليها أن تقف فى صف شعبنا ، ذلك الشعب الذى كان عليه الحاكم تحقيق رغباته الحماسية . ألم نتحمل بعض المشاق ، وبصفة خاصة فى انتشار تلك الفضائل العظيمة التى غذت حريتنا واستقلالنا وأصبحت فيما بعد أساس عظمتنا وقوتنا ؟

ولم يبق غير مسألة واحدة وهى استياء جامعى الكتب ، إن هدف قوانيننا كان إحراق الكتب الخطرة والمحافظة على الصالح المفيد منها ، ولم يكن فى الإمكان أفضل مما كان ، وكان على القضاة وحكام المدن فيما بعد أن يعتمدوا على مترجمين قديرين لفحص الكتب . وليس من السهل التحدث عن ذلك الأمر إذ كان من الصعب عملياً تحقيق ذلك ، وأذكر أنى قرأت فى مخطوط عربى محفوظ فى مكتبة جامعة بلنسية ملاحظة باللغة القطلونية مكتوبة بالقشتالية تقول : « بعد صعود المسلمين إلى الجبل عثرت أنا خايمه فرانده فى منزل كان يعيش فيه ميل لينى Mil Leni de Guadalete ملكهم الذى اختاروه ، على هذا الكتاب ولما كان مكتوباً بحروف عربية لم أستطع أن أعثر أبداً على من يستطيع قراءته . وكم أخشى ألا يكون ذلك هو القرآن » .

إن هذا المخطوط البرىء كان كتاب نحو وقواعد . ترى كم من مخطوطات شك الناس فيها على أنها مصاحف قدمت بجهلهم إلى النيران ؟؟(١)

---

(١) Janier: condition Social de los Moriscos en Espana. p. 86.